المقالة الثالثة

في علم النجوم

يقول أبو الريحان البيروني[١] في الباب الأول من كتاب «التفهيم في صناعة التنجيم»[٢]: «لا يسمى الرجل منجما ما لم يُحط بأربعة علوم، الأول الهندسة والثاني الحساب والثالث الهيأة والرابع الأحكام».

أما الهندسة فهي صناعة يعرف بها أصول أوضاع الخطوط وأشكال السطوح والمجسمات والنسبة الكلية بين المعايير وما يقدر بها ونسبة هذه إلى الأوضاع والأشكال. وقد اشتمل على أصول هذا العلم كتاب «أوقليدس النجار» الذي نقحه ثابت بن قرّة[١].

والحساب صناعة يعرف بها أحوال أنواع الأعداد وخصائص كل منها بذاته، ونسبة الأعداد إلى بعضها وتوالدها، ثم فروع الحساب من تنصيف وتضعيف وضرب وقسمة وجمع وتفريق وجبر ومقابلة. وقد اشتمل على أصوله كتاب «أرثماطيقي» وعلى فروعه «تكملة أبي منصور البغدادي»[٣] أو «صدباب»[٤] (مائة باب) للسجزي:

والهيأة علم يعرف به أحوال أجزاء العالمين العلوي والسفلي وأشكالها وأوضاعها، ونسبة كل منهما إلى الآخر، وما بينهما من المقادير والأبعاد، وأحوال حركات الكواكب والأفلاك، وتعديل الكرات وقطع الدوائر التي تتم بها هذه

---

(١) ولد سنة ٢٢١/ ٨٣٦ وتوفي سنة ٢٨٨/ ٩٠١.

الحركات. وقد اشتمل على هذا العلم كتاب «المجسطي»، وأحسن تفاسيره وشروحه «تفسير النيريزي»[٥] و«مجسطي الشفا»[١]، وأما فروع هذا العلم فهي علم الزيجات وعلم التقاويم.

والأحكام علم من فروع العلم الطبيعي وأساسه التخمين. والمقصود به الاستدلال من أشكال الكواكب بقياس بعضها إلى بعض وبقياس الدَرَج والبروج، على مجرى الحوادث التي تفيض عن حركاتها، من أحوال أوار العالم والملك والممالك والبلدان والمواليد والتحاويل والتسايير والاختيارات والمسائل. ويشتمل عليه، حسب ما ذكرنا، تصانيف أبي معشر البلخي[٦]، وأحمد بن عبد الجليل السجزى[٧]، وأبي الريحان البيروني، وكوشيار الجيلي[٨].

وإذًا ينبغي أن يكون المنجم طيب النفس، زكي الخلْق، رضي الخُلُق. كما أن العته والجنون والكهانة من شرائط هذا العلم، ومن لوازم هذه الصناعة. وينبغي أن يكون طالع المنجم الذي يريد أن ينبئ بالأحكام في سهم الغيب، أو في مكان ملائم منه. ومن توفر له برج سهم الغيب كان مسعودًا، وكان مكانه محمودا، ووقع ما يقول قريبا من الصواب. ومن شرائط المنجم أن يذكر «مجمل أصول كوشيار»[٩]، وأن يداوم قراءة «كار مهتر»[١٠]، وأن ينظر في «قانون المسعودي»[١١] و«جامع شاهى» حتى تبقى معلوماته وتصوراته حاضرة.

الحكاية الأولى

كان يعقوب بن إسحاق الكندي[١٢] يهوديا، ولكنه كان فيلسوف زمانه، وحكيم

---

(١)أي كتاب الشفا لابن سينا.

عصره وكان مقربا عند المأمون. وقد دخل عليه يوما فاتخذ لنفسه مجلسا أعلى من مجلس أحد أئمة الإسلام، فقال هذا: «إنك رجل ذمي فكيف تتخذ مكانا أعلى من مكان أئمة الإسلام». فأجاب يعقوب: «لأني أعلم ما تعلم، وأنت تجهل ما أعلم». وكان هذا الإمام يعرف أن ليعقوب علما بالنجوم، ويجهل مدى علمه بغيرها فقال: «سأكتب شيئا على قصاصة من الورق فإن خبّرت به سلمتُ بما قلت». ثم تراهنا على أن يقدم الإمام رداء. وأن يقدم يعقوب بغلة بعدتها تقوّم بألف دينار. وكانت واقفة على باب القصر. وطلب الإمام دواة وورقة فكتب على جانب منها، ثم وضعها تحت بساط الخليفة وقال: «أحدس». فطلب يعقوب بن إسحاق لوحا، ثم نهض وأخذ الارتفاع وأعد الطالع، ثم رسم الزائجة على اللوح وقوّم الكواكب وثبتها في البروج، ثم استكمل شرائط الخبي والضمير[1] وقال: «يا أمير المؤمنين قد كُتب على هذه الورقة شيء كان نباتا فصار حيوانا». فمد المأمون يده تحت البساط وأمسك الورقة فأخرجها، وكان الإمام قد كتب عليها: «عصا موسى». فتعجب المأمون تعجبا عظيما كما دهش الإمام، فأخذ يعقوب الرداء فشقه نصفين أمام المأمون. وقال: «سأتخذ منه جوربين».

ذاعت هذه القصة في بغداد، ومنها سرت فانتشرت في العراق وخراسان، فأخذ فقيه من فقهاء بلخ، وكان فيه تعصب العلماء، سكينا فخبأها في كتاب للنجوم، كي يذهب إلى بغداد ويحضر درس يعقوب، ويبدأ تعلم النجوم، ثم ينتهز الفرصة فيغتاله. وسافر بهذا العزم من بلد إلى بلد حتى بلغ بغداد، فذهب إلى الحمام ثم خرج

(١)شرح البيروني هذين الاصطلاحين في كتابه «التفهيم..» فقال: الخبْي هو ما أخفي في قبضة اليد. والضمير ما أضمره الرجل وأدركه المنجم بالسؤال. وكثيرا ما يخطئ المنجم في الحدس فيها، والخطأ فيها أكثر من الصواب (الورقة ١٥٧ب من نسخة المتحف البريطاني. حواشي القزويني ص٢٠٦-٢٠٧).

منه لابسا ثوبا جديدا، ووضع الكتاب في كمه، وتوجه إلى بيت يعقوب. فلما بلغ الباب، وجد خيلا كثيرة عليها عدد من الذهب، منها ما هو لبني هاشم وما هو لعظماء القوم وأعيان بغداد. فتقدم ودخل ومضى في حلقة الدرس نحو يعقوب فأثنى ثم قال: «أريد أن أقرأ شيئا في علم النجوم يا مولانا». فقال يعقوب: «بل جئت من المشرق لقتلي لا لقراءة النجوم، ولكنك ستندم على هذا. وستقرأ النجوم وستبلغ الكمال في هذا العلم وتكون من كبار المنجمين في أمة محمد صلى الله عليه وسلم». فتعجب جميع العظماء الحاضرين من هذا الكلام، واعترف أبو معشر، وأخرج السكين من الكتاب فحطمها ورمى بها، ثم ثنى ركبتيه، وأكب على التعلم خمسة عشر عاما حتى بلغ في علم النجوم ما بلغ.

الحكاية الثانية

يحكى أن يمين الدولة السلطان محمود بن ناصر الدين[1] كان جالسا على سطح جوسق ذي أربعة أبواب في حديقة هزار درخت أو (ألف شجرة) بمدينة غزنين، فالتفت إلى أبي الريحان البيروني وقال: «أخبرني من أي هذه الأبواب الأربعة سأخرج؟ قل واكتب اختيارك على ورقة ثم ضع الورقة تحت بساطي». وكانت هذه الأبواب كلها تؤدي إلى الطريق؛ فطلب أبو الريحان الاسطرلاب وأخذ الارتفاع وأعد الطالع وتفكر ساعة ثم كتب على الورقة ووضعها تحت البساط. وقال محمود «أحَكمتَ». قال: نعم. فأمر محمود بإحضار عامل ومعه فأس ومساحة لفتح باب خامس في الجدار الشرقي ثم خرج من هذا الباب وأمر بإحضار الورقة فإذا أبو الريحان قد كتب عليها «إن الخروج لا يكون من أحد هذه الأبواب الأربعة بل

(١) محمود الغزنوي الذي حكم من ٣٨٨/ ٩٩٨-٤٢١/ ١٠٣٠.

سيفتح باب في الجدار الشرقي ومنه يكون الخروج».

فلما قرأ السلطان محمود هذا الكلام غضب، وأمر بإلقاء أبي الريحان في ساحة القصر، فألقوه، ولكنه وقع على شبكة معلقة في الطابق الأوسط فانشقت وهوي البيروني في رفق إلى الأرض فلم يصب جسمه برض. وقال السلطان: أحضروه فصعدوا به إليه فقال له: «يا أبا الريحان إنك لم تحط علمًا بما جرى لك». فقال: «بل كنت أعلم به يا مولاي» قال: فما دليلك؟ فنادى غلامه وأخذ منه التقويم فاستخرج منه تحويله فكان مكتوبا في أحكام ذلك اليوم «إنه سيلقى بي من مكان عال ولكني أبلغ الأرض بسلام وأنهض معافى». فلم يرق هذا الكلام لمحمود أيضًا وازداد غضبه وقال: احملوه إلى القلعة واحبسوه. فحبسوه في قلعة غزنين فلبث فيها ستة أشهر.

الحكاية الثالثة

قالوا: ولم يكن أحد يجرؤ على ذكر أبي الريحان عند السلطان محمود طوال هذه الأشهر الستة، وكان قد عين لخدمته أحد غلمانه. فكان يقوم بقضاء ما يحتاج إليه، يخرج ثم يعود. وبينما الغلام يمر يوما بحديقة غزنين إذا بعرّاف يناديه: أرى في طالعك كثيرا مما يقال، هات حلوانك لأحدثك عنه. فأعطاه الغلام درهمين فقال له العراف: «إن أحد أعزائك في ضيق وسيخلص منه في مدى ثلاثة أيام، فيلبس الخلعة والتشريف ويعود عزيزا مكرما» فسارع الغلام إلى القلعة وحدث سيده مبشرا بما سمع. فضحك أبو الريحان وقال: «ألا تعلم أيها الأبله أنه لا يجوز الوقوف بمثل هذه الأماكن وأنك قد أضعت الدرهمين سدى».

قيل: وكان الوزير الكبير أحمد بن حسن الميمندي طوال هذه الأشهر الستة يترقب الفرصة ليتحدث عن أبي الريحان، ثم رأى السلطان معتدل المزاج في المصطاد فانتهز الفرصة وأخذ ينتقل من حديث إلى حديث حتى انتقل إلى علم النجوم فقال: «مسكين أبو الريحان، فقد صدقت نبوءته في هذين الحكمين ولكنه لقي القيد والسجن بدلا من الخلعة والتشريف» فقال محمود: ليعلم الوزير أني أعرف هذا، ويقال: إنه ليس لهذا الرجل نظير غير ابن سينا، ولكن حكميه كانا على خلاف رأيي الملوك كالأطفال الصغار، ينبغي أن يكون الكلام وفق رأيهم ليكون للمتحدث نصيب منهم وكان من الخير له لو أخطأ ذلك اليوم في أحد حكميه، مُرْغدًا بإطلاق سراحه، وبأن يعطى حصانا وعدة من ذهب وجبة ملكية وعمامة من القصب وألف دينار وغلاما وجارية.

وقد أطلق سراح أبي الريحان في اليوم الذي ذكره العراف وأكرم على النحو الذي وصف واعتذر له السلطان قائلا: «يا أبا الريحان إذا أردت أن تكون سعيدا عندي فاجعل قولك وفق رأيي لا وفق سلطان علمك». فسار أبو الريحان على هذا. وهو أحد شروط خدمة الملك، تنبغي موافقته في الحق والباطل وجعل التقارير وفق هواه.

ولما عاد أبو الريحان إلى بيته وجاء أهل الفضل لتهنئته حدثهم حديث العراف فتعجبوا وأرسلوا رسولا يدعوه فإذا هو شديد الجهل، لا يعرف شيئا قط. فسأله أبو الريحان: «أعندك طالع المولد». فقال: عندي. ثم أحضر هذا الطالع فنظر أبو الريحان فوجد سهم الغيب على حاق درجته، فكان كل ما يقوله، ولو خبط عشواء، مقاربا للصواب.

الحكاية الرابعة

كان لديّ خادم ولدت في الثامن والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة وخمسمائة[١] والشمس والقمر في برج واحد وليس بينهما بعد قط، ولهذا وقع سهما الغيب والسعادة فوق درجة طالعها. وقد لقنتها علم النجوم حينما بلغت الخامسة عشرة من عمرها، فبلغ إتقانها له أنها كانت تجيب عن المشكل من مسائله، كما كانت أحكامها تقع قريبة من الصواب جدا، وكانت المخدرات يذهبن إليها ويسألنها فكان أكثر ما تقول يوافق القضاء.

وجاءتها يوما عجوز فقالت: إن أحد أبنائي سافر منذ أربع سنوات وليس لدي أي خبر عنه، لا عن حياته ولا عن مماته، فانظري أحي هو أم ميت، وحدثيني أين هو وكيف حاله. فقامت المنجمة وأخذت الارتفاع وصوبت درجة الطالع ورسمت الزايجة وثبتت الكواكب وكان أول ما قالت: عاد ولدك. فغضبت العجوز وقالت: يا بنيتي إني لا أطمع في عودته، حسبك أن تحدثيني أحي هو أم ميت. فقالت: أقول: إن ولدك قد عاد فاذهبي فإن لم تجديه قد رجع فعودي لأحدثك كيف هو. فقفلت العجوز راجعة إلى البيت فوجدت ابنها قد عاد ومتاعه ينزل من ظهر الحمار، فاحتضنته ثم أخذت مقنعتين إلى المنجمة وقالت: صدقت فقد عاد ولدي. وأهدتها المقنعتين داعية لها.

ولما رجعتُ إلى الدار ذلك المساء وسمعت هذا الخبر سألتها: بأي دليل نبأت ومن أي برد حكمت. قالت: «لم أبلغ هذا، ولكني حينما أتممت صورة الطالع دخلت

---

(١) أول يوليو ١١١٧.

ذبابة فوقعت على حافته فأدركت في قرارة نفسي أن هذا الولد قد عاد. ولما قلت هذا وانصرفت أأمه تتبين الخبر كانت عودته قد تحققت لدي حتى لكأني أراه ينزل المتاع عن ظهر الحمار» فتحقق لدي أن هذا كله عمل سهم الغيب على درجة الطالع وليس صدق حدسها إلا منه.

الحكاية الخامسة

كان محمود الداودي بن أبي القاسم الداودي معتوها جدا، بل كان مجنونا، ولم يكن له من علم النجوم حظ كبير، ولكنه كان ملمًا بأعمالها، وكان في تقويمه أشكال يستدل منها بنعم أو بلا. وكان الداودي في حاشية الأمير دادا أبي بكر بن مسعود بمدينة بنج ديه، وكانت أحكامه قريبة من الصواب. وقد بلغ من الجنون أن مولاي ملك الجبال[١٣] أهدى الأمير داد كلبين من الكلاب الغورية، كانا في غاية الضخامة والشراسة فصارعهما الداودي مختارا وخرج من صراعهما سالما. وكنت بعد هذا الحادث بسنوات جالسا مع جماعة من أهل الفضل عند دكان المقري الحداد الطبيب في سوق العطارين بمدينة هراة، ودارت ألوان من الحديث شتى، فجرى على لسان أحد الفضلاء: ما أعظم ابن سينا. فرأيت الداودي وقد تميز غيظًا وبرزت أوداجه وانتفخت وبدت على وجهه أمارات الغضب وقال: يا فلان ماذا كان ابن سينا؟ أنا أكبر منه ألف مرة، إنه لم يحارب قطا ولقد حاربت أمام الأمير داد كلبين غوريين.

فعرفت في ذلك اليوم أنه مجنونٌ. ومع جنونه هذا رأيت، سنة ثمان وخمسمائة[١] حين نزل السلطان سنجر في صحراء خوزان[١٤] واتجه نحو ما وراء النهر لمحاربة

---

(١) ١١١٤-١١١٥.

محمد خان[١٥]، أن الأمير داد أعد مأدبة رائعة للسلطان، وفي اليوم الثالث توجه إلى النهر وركب في سفينة وأخذ يلهو بصيد السمك وقد دعا الداودي لمصاحبته ليحدثه هذا النوع من أحاديث الجنون فيضحك منه، وكان الداودي يتطاول على الأمير جهارا. وقال له الأمير مرة: قل لي كم مَنّا تزن السمكة التي أصيدها هذه المرة؟ فقال الداودي: ارفع الشص، فرفعه الأمير. فأخذ الارتفاع وسكت لحظة ثم قال: ألقه الآن. فألقاه الأمير فقال الداودي: أرى أنك تصيد الآن سمكة وزنها خمسة أمنان. فقال الأمير: كيف يكون السمك الذي يزن خمسة أمنان في هذا النهر يا لعين. فقال الداودي: صه ماذا تدري! فسكت الأمير داد خشية أن يشتمه إن هو تمادى في الكلام. ثم إن الشص ثقل بعد لحظة دلالة على أن صيدا وقع به، فجره الأمير فإذا سمكة كبيرة قد علقت به. فلما انتُزعت وُجدت تزن خمسة أمنان[١]. فتعجب الحاضرون وتعجب الأمير. والحق أن الأمر كان عجيبا. وقال الأمير للداودي: ماذا تطلب؟ فحياه وقال: يا ملك الأرض أطلب جوشنا ودرعا ورمحا لأقاتل الأباوردي. وكان الأباوردي هذا ضابطا ملازما في حاشية الأمير داد، وكان الداودي يبغضه لأنه لُقب شجاع الملك بينما لقب الداودي بشجاع الحكماء فكان حانقا لتلقيب الأباوردي بشجاع. وكان الأمير داد يعرف هذا فدأب يوقع بينهما. وكان الأباوردي، هذا الرجل المسلم، يلقى عناء من الداودي.

وفي الجملة لم يكن هناك شك في جنون الداودي. وقد أوردت هذا الفصل ليعلم الملك أن الجنون من شروط هذا الباب.

---

(١) في النص الفارسي المنشور سبعة أمنان، وفي النسخة المرموز لها بحرف (ل) خمسة أمنان وهو المتفق مع سياق الحكاية.

الحكاية السادسة

كان الحكيم الموصلي من طبقة المنجمين في نيسابور. وكان في حاشية الوزير الكبير نظام الملك الطوسي، وكان هذا يستشيره في مهمات الأمور ويسأله الرأي والتدبير. فلما بلغ الموصلي من الكبر عتيا وفترت منه القوى ودب الضعف في جسده وأصبح لا يحتمل مشقة السفر الطويل طلب من الوزير أن يعفيه من عمله، ليذهب إلى نيسابور فيقيم بها على أن يبعث إليه كل عام تقويما وتحويلا. وكان نظام الملك قد تقدمت به السن ولم يبق من عمره إلا القليل فقال له: سق التسيير ثم انظر متى تفيض روحي ويحل القضاء الواقع والحكم الذي لا مفر منه.

فقال الحكيم الموصلي: بعد وفاتي بستة أشهر. فزاد الوزير في برّه وترفيهه. وسار الموصلي إلى نيسابور وأقام منعما يرسل التقويم والتحويل كل عام.

وكان نظام الملك يسأل كل من يأتي من نيسابور، أول ما يسأل، كيف حال الموصلي؟ فإذا وجده سليما معافى اعتدل طبعه وطاب قلبه. إلى أن كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة[1] فقدم قادم من نيسابور فسأله الوزير عن الموصلي، فتقدم الرجل بالتحية ثم قال: ليبقى صدر الإسلام وارثا للأعمار لقد مات الموصلي. فقال الوزير: متى؟ قال الرجل: ذهب فداء لصدر الإسلام في نصف ربيع الأول. فتفطر قلب الوزير الكبير وأفاق فأعاد النظر في أعماله، وفي سجل الأوقاف ووقع الأمر بصرف الخيرات، وكتب الوصية وحرر من رضي عنه من عبيده، ووفى دينه، وأسعد كل من استظل بسلطانه، وطلب العفو من خصومه. وبقي ينتظر الموت، حتى كان رمضان

---

(١) ١٠٩٢-٣.

فاستشهد على يد تلك الجماعة[١] في بغداد. أنار الله برهانه وأسبغ عليه رضوانه[١٦].

حينما يتقن رصد طالع المولود ورب البيت والهيلاج ويكون المنجم حاذقًا فاضلا فإن حكمه يصيب والله أعلم.

الحكاية السابعة

في سنة ست وخمسمائة[٢]، في مدين بلخ في شارع النخاسين (وده فروشان) نزل في سراي الأمير أبي سعيد جرة الإمامان عمر الخيام[١٧] ومظفر الأسفزاري[١٨] وقد كنت متصلا بهذا الأمير فسمعت أثناء مجلس السمر حجة الحق عمر يقول: سيكون قبري في موضع تؤرجه ريح الشمال بشذى الورد كل ربيع. فبدا لي أن هذا القول مستحيل، وكنت أعرف أن مثله لا يقول جزافا.

فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسمائة[٣]، وقد خلت أربع سنوات على إيداع هذا الرجل العظيم الثرى[١٩] وصارت الدنيا يتيمة من بعده، وكان له على حق الأستاذية، ذهبت لزيارة قبره يوم الجمعة، وقد استصحبت رجلا يدلني على قبره، فأخرجني إلى مقبرة الحيرة[٢٠]، وسرت يسارًا فرأيت قبره أسفل جدار بستان قد أطلت منه أشار الكمثرى والمشمش وقد تناثر على القبر كثير من الزهر حتى غطاه. فجالت بخاطري تلك الحكاية التي كنت سمعتها منه في بلخ فغلبني البكاء، إذ لم أر له نظيرا في الدنيا وأقطار الربع المسكون. أسكنه الله الجنات بمنه وكرمه.

---

(١) الصباحية أتباع حسن الصباح.

(٢) ١١١٢-١٣.

(٣) ١١٣٠-٣٦.

الحكاية الثامنة

ومع أني رأيت هذا الحكم من حجة الحق عمر لم أر له في أحكام النجوم اعتقادًا قط، ولا رأيت أو سمعت من العظماء أنه كان يعتقد بها.

في شتاء سنة ثمان وخمسمائة[١]، في مدين مرو أرسل السلطان رسولا إلى الوزير الكبير صدر الدين محمد بن المظفر[٢] رحمه الله قائلا: قل للإمام عمر يختار بضعة أيام لا يكون فيها ثلج ولا مطر حتى نخرج للصيد. وكان الإمام عمر في صحبة الوزير نازلا في قصره، فأرسل إليه رسولا ودعاه وقص عليه الأمر، فذهب الخيام وأعمل جهده يومين واختار وقتا حسنًا، ثم ذهب بنفسه فأركب السلطان حسب اختياره.

فلما ركب السلطان وسار في طريقه قليلا تجمعت السحب وهبت الريح وهطل الثلج وانتشر الضباب، وضحك الرَّكبْ، وهمّ السلطان بأن يعود فقال الإمام: ليطمئن قلب السلطان فإن المطر سينقطع لساعته ولن تنزل في هذه الأيام الخمسة قطرة منه. فسار السلطان وانقشعت السحب، ولم ينزل طل في هذه الأيام الخمسة، ولا رأى أحد سحابا.

فأحكام النجوم، مع أنها صناعة معروفة، لا يجوز الاعتماد عليها. كما أنه لا ينبغي للمنجم أن يمعن فيها، وعليه أن يحيل كل حكم يرى على القضاء.

---

(١) ١١١٤-١٥.

الحكاية التاسعة

وعلى الملك أن يختار حيثما توجه نديمه وخادمه. فإن كان مؤمنا قائما بالفرائض والسنة مخلصا له قرّبه وعززه واعتمد عليه، وإن كان على خلاف ذلك هجره وحفظ مجلسه من ظله فإن من لا يعتقد في دين الله عز وجل وفي شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا يكون له اعتقاد في إنسان، ثم إنه يكون شؤما على نفسه وعلى مخدومه.

في أوائل عهد السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين نوّر الله تربته عصى ملك العرب صدقة[٢٢] وخلع ربقة الطاعة من عنقه وتوجه من الحلة إلى بغداد ومعه خمسون ألف عربي، فأرسل أمير المؤمنين المستظهر بالله إلى إصفهان كتابا إثر كتاب ورسولا بعد رسول مستنجدا بالسلطان. وكان السلطان يسأل المنجمين الاختيار، فلا يهتدون إليه. فقد كان صاحب طالع السلطان راجعا. فقالوا: إنا لا نجد اختيارا يا مولانا، فقال: ابحثوا. وشدد عليهم وبرم بهم فولوا هاربين.

وكان هناك غزنوي يمتهن قراءة الفأل، وكان له دكان بطريق كنبد (القبة)، وكانت النسوة تجتمعن حوله فيكتب لهن تعاويذ الحب. ولم يكن الرجل واسع العلم. وقد مثل أمام السلطان، إذ كان يعرف أحد خدمه. فقال له: إني أعد الاختيار فاذهب وفقًا له فإن لم تظفر فاقطع رقبتي. فسر قلب السلطان وركب بناء على حكمه فورًا وأعطاه مائتي دينار نيسابوري. ثم سار فحارب صدقة وهزم جنده وأسره ثم قتله.

فلما عاد السلطان منصورًا مظفرًا إلى إصفهان أكرم قارئ الفأل وأولاه شرفا

عظيما وقربه منه.

ثم دعا المنجمين وقال لهم: إنكم لم تختاروا، وأعد هذا الغزنوي الاختيار، فذهبنا وقد أيدنا الله عز وجل، فلم فعلتم هذا، لعل صدقة قد أرسل لكم رشوة لئلا تعدوا اختيارًا. فخر المنجمون على التراب متضرعين وقالوا: إن هذا الاختيار لم يكن ليرضي منجما قط. وإذا يشاء السلطان فليكتب رسالة وليبعث بها إلى خراسان ليرى ماذا يقول الإمام عمر الخيام. فأدرك السلطان أن هؤلاء المساكين يقولون حقا، فدعا أحد ندمائه الأفاضل وقال له: عليك أن تشرب الخمر غدًا في بيتك، وأن تدعو المنجم الغزنوي وتسقيه وأن تقول له -وهو في شدة السكر: إن هذا الاختيار الذي أعددت لم يكن حسنا فإن المنجمين يعيبونه، فحدثني عن سره. ففعل النديم ما أُمر به، وسأل الغزنوي وهو سكران فقال: إني علمت أن الأمر لا يعدو واحدًا من اثنين إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف، وإن حلت بهذا الهزيمة فمن ذا يبالي بي.

وفي اليوم التالي حدث النديم السلطان بما سمع فأمر بطرد الكاهن الغزنوي. وقال: إن رجلا كهذا يرى في المسلمينْ هذا الرأي لرجل مشئوم. ثم نادى منجميه ووثق بهم. وقال: إني أبغضت هذا الكاهن فإنه لم يُصلّ قط، ومن لا يقوم بالشرع لا يعمل معنا.

الحكاية العاشرة

في شهور سنة سبع وأربعين وخمسمائة[٢٣](١). وقعت الحرب بين سلطان العالم

(١) ١١٥٢-٥٣.

سنجر بن ملكشاه ومولاي السلطان علاء الدنيا والدين[٢٤]، عند باب أوبة[٢٥]، وقد هزم جيش الغور وأسر مولاي سلطان المشرق خلد الله ملكه، كما وقع ابن مولاي ملك العالم العادل شمس الدولة والدين محمد بن مسعود[٢٦] أسيرا في يد الأمير القائد (أمير سباهسالار) يرَنْقُش هريوه[٢٧]، فاتفق على دفع خمسين ألف دينار فدية وعلى أن يذهب رسوله إلى القصر في باميان ليستعجل هذا المال، فإذا بلغ هراة أفرج عن الأمير، لأنه كان مطلق السراح من قِبل سلطان العالم سنجر، وقد أمر له بخلعة عند مغادرته هراة.

وقد قدمت في هذه الحال لأكون في خدمته، وقد بلغ منه الحزن يوما فسألني متى الخلاص ومتى تصل هذه الرسالة. فأخذت الارتفاع بهذا الاختيار، وأصعدت الطالع في ذلك اليوم، باذلا كل جهد؛ وقد بدأ مفتاح الفرج لهذه الشدة في اليوم الثالث فجئت إليه في اليوم التالي. وقلت: غدا عند صلاة الظهر يأتي الرسول. فأخذ هذا الأمير يفكر طول يومه حتى إذا ذهبت لخدمته في اليوم التالي قال لي: اليوم موعدنا. فقلت: نعم. وبقيت في حضرته حتى صلاة الظهر، فلما علا الأذان قال لي متضجرًا: أرأيت أن صلاة الظهر قد حلت، ولما يأت الخبر؟ وبينما الأمير في هذا إذا بقاصد يدخل مبشرًا بأن الحِمل قد أُحضر -الفداء- وهو خمسون ألف دينار وأغنام وأشياء أخرى، وكان صاحب الحمل عز الدين محمود حاجي كدخداي الأمير حسام الدولة والدين[٢٨]. وفي اليوم التالي لبس الأمير شمس الدولة والدين خلعة سلطان العالم -سنجر- وأصبح طليقًا فحث السير إلى مقر عزه أسرع ما يكون وكانت الأحوال كل يوم في سمو، أدام الله سموها.

كان في هذه الليالي يعطف علي ويقول: يا نظامي أتذكر أنك أعددت هذا الحكم في هراة، وقد صدق، وكنت أريد أن أملأ فمك ذهبا ولكنه لم يكن عندي هناك أما

هنا فهو عندي. ثم طلب الذهب فملأ فمي به مرتين، ثم قال: إن فمك لا يسع كثيرا فافتح كمك ففتحته فملأه ذهبا.

أدام الله بركته على هذه الدولة، وحفظ هذين الأميرين للملك المعظم الجليل[٢٩] بمنه وكرمه.

obeikandl.com